

6

.....

النمو البطيء

.....

يوحي مفهوم الاستعجال أن هناك وقعاً أبطأ للنمو والتطور، يتسم بأنه طبيعي وصحي أكثر للنمو والتطور مما ينعم به كثير من الأطفال الأمريكيين. سيصف هذا الفصل بعض المآثر، وبعض القصور، الذي يميز مراحل التطور الرئيسة وهي: مرحلة الوليد، والطفولة المبكرة، والطفولة، والمراهقة. كما سيتوقف هذا الفصل عند تعريف بعض آثار الاستعجال على المسار «الطبيعي» للتطور الثقافي والعاطفي والاجتماعي.

وقد وصف الطبيب النفسي السويسري جان بياجيه Jean Piaget أربع مراحل أو درجات رئيسة في تطور تفكير الطفل. قال بياجيه إن الأطفال في كل مرحلة لا يقتبسون ما يصادفونه وإنما ينشطون في تكوين الواقع من الخبرات التي يستقونها من بيئتهم. والوقائع التي يكونها الأطفال هي، بشكل أو بآخر، سلسلة من القيم التقديرية المتنامية لواقع الكبار. وبالتالي فهي لا

تتوافق بدقة مع تصور الكبار للعالم. كما أن الأطفال قبل المراهقة، تنقصهم القدرات الذهنية اللازمة للتفكير والمناقشة والمحكمة واتخاذ القرارات كما يفعل الكبار. هذه القدرات تتطور على مراحل أيضاً. أي أن مضمون وشكل تفكير الأطفال يتغير مع التقدم في العمر⁽¹⁾.

وقد تجمعت أدلة في السنوات الأخيرة تدعم المراحل التي تحدث عنها بياجيه. كما أن الروايز التي وضعها تستخدم الآن في أكثر من نصف دول العالم وتعطي نتائج مقارنة مذهلة. فالأطفال في جميع أرجاء العالم يمرون بهذه المراحل التي تسبق المراهقة. كما أن الدراسات الأخيرة تفيد بأن نجاح الأطفال في الاختبارات وفي المناهج الدراسية يتعلق «بالتطابق» بين درجة تطور الطفل عقلياً والدرجة التي تفترضها الاختبارات والمناهج. وهذا يعني أن مهنة التعليم يمكن تحسينها بتوافق أفضل بين مستوى تطور الطفل والمستوى المتضمن في الاختبارات والمناهج.

إلا أن المراحل البياجية ستكون مجرد إطار للوصف المدرج أدناه، الذي يتضمن أيضاً نقاشاً للتطور الاجتماعي - العاطفي للطفل. ونحن إذ نلاحظ ونفهم قوة وقصور كل مرحلة من مراحل التطور، يصبح معنى الاستعجال ومخاطره أكثر وضوحاً.

المرحلة المتعلقة بالنشاط الحسي والحركي (الحسي

حركية) يعنى الوليد، منذ ولادته وحتى يبلغ عامه الثاني، بتكوين عالم من الأشياء الدائمة، فيتعلق بآخرين مهمين، ويوطد ما أسماه أستاذ هارفارد الراحل اريك اريكسون Erik Erikson الإحساس بـ «الثقة»⁽²⁾. هذه الإنجازات الثلاثة تشكل التطورات الثقافية والاجتماعية والعاطفية الرئيسة لمرحلة بداءة الطفولة.

بالنسبة للأشياء الدائمة، ليس لدى الوليد أي فكرة أن الأشياء تبقى موجودة عندما لا يراها أو يسمعها أو يشعر بها أو يتذوقها أو يشم رائحتها. ما نراه نحن الكبار أشياء، كالفناجين والصحون والكلاب والقطط وما إليها، هي، لحد ما، مفاهيم شكلناها نحن. فنحن نعرف أن فنجاناً معيناً لا يستنفد طبقة الفناجين وأن الفناجين موجودة في جميع أرجاء العالم سواء كنا قادرين على رؤيتها أو لمسها أم لا. لكن معرفتنا بالفناجين، كمعرفتنا بالكلاب والسيارات والبيوت والقوارب ليست فطرية، فنحن لم نأت إلى هذا العالم بهذه المعرفة وإنما اكتسبناها.

كيف تجري عملية الاكتساب هذه؟ يقول علم النفس التقليدي إن الطفل نظر إلى الفنجان واستخلص ملامحه وصفاته العامة. المشكلة في هذا الموقف هي أنه يفترض المعرفة بالشيء الذي يحاول تفسيره. لو كان الطفل قادراً على تمييز الفنجان بشكل جيد يكفي لاستخلاص ملامحه العامة، لكن لديه المفهوم الذي هو بصدد حيازته. إن نظرية التجريد في التوصل إلى المعرفة نظرية دائرية.

يقول بياجيه إن الأشياء كالفناجين لا ينظر إليها ككيانات محددة من قبل الأطفال، وإنما لابد للطفل من تكوينها بنفسه. ولا تبدأ عملية التكوين إلا عندما يبدأ الطفل بالنظر إلى الفنجان ولمسه وإسقاطه ودفعه والإمساك به. تعتمد مفاهيم الطفل على تصرفاته حيال الفنجان، واكتشافه الفعلي لمواصفاته، وليس على المشاهدة السلبية والاستخلاص. لهذا كان من الضروري بالنسبة للوليد أن يكتشف الأشياء بفاعلية بلمسها وتحسسها وتذوقها والإمساك بها وإسقاطها. بهذه الضروب من النشاط يتمكن الوليد بنهاية سنته الأول من تكوين مفخرة من الأشياء الدائمة، كالفناجين، يعرف أنها موجودة حتى عندما لا ينظر إليها.

هذا التطور يسهل استعراضه بأشياء حية أو غير ذات حياة. عندما كانت جاكين، ابنة بياجيه، في شهرها الثامن حمل بياجيه أمامها علبة سجائر ثم تركها تسقط على الأرض. لم تتابع جاكين سقوط العلبة بنظرها وإنما بقي نظرها معلقاً بيد والدها. لم تكن علبة السجائر قد أصبحت شيئاً دائماً بالنسبة إليها بما يمكنها من متابعته عندما سقط. وعندما بلغت تسعة عشر شهراً قدمت دليلاً على أن مفهومها للأشياء قد أصبح متقدماً بشكل جيد فقد وضع بياجيه قطعة نقود في يده ثم وضع يده تحت غطاء السرير وأسقط قطعة النقود من يده قبل أن يخرجها. نظرت جاكين داخل يده أولاً ثم رفعت غطاء السرير فوراً لتجد قطعة النقود⁽³⁾.

تتبع عملية مماثلة من التكوين فيما يتعلق بالأشخاص.

فالوليد الصغير لا يعتقد أن الأشخاص، كما الأشياء، يبقون موجودين عندما يغيبون عن الحواس. ففي إحدى الدراسات قورنت ردود فعل أطفال في عمر ثلاثة أشهر مع آخرين في عمر عشرة أشهر إثر بقائهم في المستشفى بضعة أيام لإجراء جراحة بسيطة. عندما عاد أبناء الثلاثة أشهر إلى البيت لم يظهر عليهم ما يذكر من مشاكل التكيف وعادوا بسرعة إلى ما كانوا عليه قبل ذهابهم. بينما أظهر أبناء العشرة أشهر مؤشرات قلق حادة، وتعلقوا بأمهاتهم ولم يستقر وضعهم قبل مرور أسابيع عدة. ولا يدعو إلى العجب أن الخوف من الغرباء ورفض البقاء مع جليسة أطفال يظهر أيضاً في هذا الوقت.

يقول الطبيب النفسي البريطاني جون بولبي John Bowlby، إن طفولة المهد هي الوقت الذي يتشكل فيه تعلق الطفل بالذين يعتنون به⁽⁴⁾. هذا التعلق - الذي يتركز بشكل رئيسي في شخص الأم - يعتمد جزئياً على تكوين الوليد لأمه كشيء. إلا أن التعلق يعكس أيضاً أكثر من ذلك: إنه يعكس حاجة أساسية إلى التعلق، وإلى الارتباط بطريقة عاطفية بشخص آخر. إن تعلق الطفل بأمه حافظ قوي وراء جل ما يتعلمه الطفل. فالتعلق يمكن الوليد من الاستمتاع بالحب والاهتمام (اللذين لا يعنيان شيئاً عندما يأتيان من شخص لا يتعلق الطفل به) كما أنه يحرك الخوف من الانفصال والفقد.

بالإضافة إلى الارتباطات المحددة. لابد للوليد أيضاً من ترسيخ إحساس بالثقة يطغى على إحساسه بالشك. هذه النتيجة

الصحية تعتمد إلى حد كبير على خبرة الوليد بمن يرعاه. فالوليد الذي يجد أن العالم مكان أمين يمكن الركون إليه، تلبى فيه حاجاته في وقتها وبشكل مستمر، يكتسب إحساساً بالثقة أقوى من إحساسه بالشك. هذا الإحساس بالثقة، بأن من يرعاه شخص جيد يمكن الاعتماد عليه، يمتد بالتدرج ليشمل الكبار بشكل عام.

أما إذا كان الطفل مهماً والعناية به مشتتة فإنه قد يطور إحساساً بعدم الثقة بأن العالم مكان مرعب وخطير لا يمكن الاعتماد على أحد فيه. صحيح أن حداً من الشك يشكل حماية صحية من الثقة في غير محلها بالآخرين، إلا أن الإفراط قد يؤدي إلى تدمير الذات.

لذلك تعتبر طفولة المهد مرحلة بالغة الأهمية لأنها الفترة التي لا يطور الطفل فيها مفاهيمه الأساسية حول العالم فحسب، وإنما يشكل فيها ارتباطاته وتوجهاته الاجتماعية الأكثر حساسية. هذه المنجزات، مثل المنجزات التي ستتحقق فيما بعد، تستغرق وقتاً وجهداً ولا يمكن استعجالها. لا يصبح الإنسان راشداً دفعة واحدة، وتعتمد نوعية الشخص الذي يتطور، لحد كبير، على نوعية الوقت والجهد اللذين خصصا له أثناء طفولته. هذا لا يعني أن الأطفال الصغار يجب ألا يودعوا في مراكز عناية نهائية أو يتركوا مع جليسة أطفال. وإنما يعني (كما سنتابع بالتفصيل عندما نراجع موضوع الاتفاقيات) أن حاجات الطفل يجب ألا تصبح ملحقة بحاجات الأبوين.

مرحلة ما قبل الجاهزية العملية

تعتبر السنوات ما بين الستين والستة بالغة الأهمية بالنسبة لتطور الطفل باتجاه الذاتية التامة. فمن وجهة النظر الثقافية هي فترة يكتسب فيها الطفل الوظيفة الرمزية ويستطيع الآن أن يمثل، بطرق تقليدية أو مبتكرة، الأشياء والعلاقات التي بناها خلال سنوات طفولة المهد. وإتقان اللغة يسمح للطفل بالتعبير عن مكتشفاته الثقافية وعن رغباته ومشاعره بالكلمات. بالإضافة إلى أن الطفل إذ يبدأ بإقامة علاقات اجتماعية يتبين ضعفه النسبي، ويكتشف الأخطار، ويصادف أشخاصاً ومواقف غير سارة، يبدأ بالتعبير عن مخاوفه وقلقه في أحلامه وفي تصرفات رمزية دالة. وإذا يؤخذ بعض الأطفال بالأبطال الخارقين (مثل سوبرمان) إنما يعبرون عن حالة ملفتة. فالأبطال الخارقون يظهرون ضعف ومحدودية الكبار العاديين. ويساعدون الأطفال على التغلب على الاعتقاد أن الأبوين يمثلان القوة والمعرفة التامة.

وإلى جانب الوظيفة الرمزية، يكتسب الأطفال الصغار قوى محاكمة معقولة ترتبط بالرموز. فيبدأون بتشكيل مفاهيم عن الأنواع والعلاقات التي تتجاوز المعارف المحددة لمرحلة طفولة المهد. إلا أن الأطفال في هذه المرحلة أيضاً يرتكبون أخطاء موصوفة تتعلق بالواحد والكثير. عندما يرى الطفل الصغير كلباً. ويقول «كلب»، لا يتضح ما إذا كان يعني «انظر إلى ذلك الكلب الأسود السبيليني المدلل»، الكلب المحدد، أم «انظر إلى الكلب»، نموذج محدد من الكلاب كنوع. وعندما يطلق الطفل

الصغير على رجل غريب اسم «بابا» فإنه يقدم دليلاً على التباس بين الكلمات التي تصف شيئاً واحداً، هو «بابا» وتلك التي تصف أشياء كثيرة، «رجل».

التعلق بالرموز واستغلالها يساعد في شرح الصعوبة التي يبديها كثير من الأطفال الصغار عندما يطلب إليهم «المشاركة» في الأشخاص والأشياء التي يعتبرونها ملكهم. يرفض الأطفال الصغار أي مولود جديد للأسرة لأنهم يرون أن ما ترمز إليه «ماما» ملكاً خاصاً بهم، يشكل جزءاً من رمز «أنا وما لي». والشيء نفسه ينطبق على الألعاب، فالأطفال دون سن المدرسة يجدون صعوبة في المشاركة ليس لأنهم أنانيون بمفهوم الكبار للكلمة. وإنما لأن الطفل الصغير يعتبر ألعابه جزءاً منه، واقتسام ألعابه أشبه بمشاركة الآخرين في جزء من كيانه.

كما أن الوظيفة الرمزية تولد نوعاً من سحر الكلمات. يعتقد الطفل الصغير أنه إذا نُعت بكلمة سيئة مثل «نتن»، تسبغ عليه الصفة المميزة إضافة إلى الاسم. كما يعتقد الطفل دون سن المدرسة أن الأحداث التي تطرأ في وقت واحد يسبب أحدها الآخر. وكثيراً ما يتعلق الطفل ببطانية أو دب محشو بالقطن ارتبط ذات مرة مع الإحساس بالراحة ومشاعر جميلة أخرى. منذ ذلك الحين يبقى الطفل على اعتقاده أن الدمية أو البطانية «تولد» المشاعر الجيدة ويتناول ليمسك بها في أوقات الشدة. هذا النوع من التفكير السحري يجعل الطفل يعتقد أنه مسؤول عن انفصال أبويه أو طلاقهما. فالطفل الصغير يعتقد أنه

قال أو فعل شيئاً وقت وقوع الطلاق «تسبب» في الانفصال. هذا التفكير قد يسهم في الإحساس بالذنب أو الندم مدى الحياة.

الطفولة المبكرة هي أيضاً، في نظرية أريكسون، الفترة التي يحدث فيها التوازن بين إحساس الطفل بالاستقلال وإحساسه بالعار أو الشك. إذا شجع الأطفال، بمجرد أن يقدموا ما يشعر بأنهم أصبحوا قادرين، على تناول طعامهم ودخول المرحاض بمفردهم، فإن ذلك يدعم إحساسهم بالاستقلال. بالمقابل، إذا دفع الأطفال نحو تناول طعامهم أو قضاء حاجتهم بمفردهم قبل أن يملكو القدرات الحركية اللازمة، فإنهم سيرتكبون حوادث مربكة. هذه الحوادث بالإضافة إلى شجب الأبوين، ترسخ إحساس الطفل بالخزي والشك على حساب إحساسهم الوليد بالاستقلال. فامتلاك الطفل إحساساً صحياً بالاستقلال أو دخوله مرحلة الطفولة مثقلاً بإحساس طاغ بالخزي والشك يعتمد على العناية التي يبذلها الأبوان في مواءمة ما يتوقعانه من الطفل مع تطور قدراته.

في سن الرابعة أو الخامسة، لابد للطفل من موازنة إحساسه بالمبادرة مقابل إحساسه بالذنب. فالطفل في هذا العمر قد أصبح يملك تحكماً حركياً وقدرة لغوية، وأهلية فكرية لا يستهان بها. كما لديه من الفضول والتلهف لاكتشاف عالمه، ما يعبر عنه بتساؤلات «لماذا» لا تنتهي كأن يسأل: «لماذا تشرق الشمس؟» أو «ماذا يحدث عندما نذهب إلى آخر الأرض؟» كما

يحب الطفل في هذا العمر أن يفكك الأشياء (كالساعات القديمة، والمذياع...) ليرى كيف تعمل.

يقوى إحساس الطفل بالمبادرة، والفضول، والاكتشاف عندما يستفيض الأبوان في الإجابة عن تساؤلات الطفل، وعندما يقدمون له المواد والفرص للاكتشاف والاطلاع، وعندما لا يبدیان استياء حيال الحطام والفوضى الناجمين عن ذلك. في المقابل إذا أجيب الطفل عن أسئلته بشكل سطحي ومتعجل، أو لم يجب عنها أصلاً. وإذا كان الأبوان مشغولين بشكل لا يسمح بتأمين فرص للاكتشاف واستشاطا غضباً إزاء «الفوضى» الناجمة عن جهود الطفل في تفكيك الساعات والتلفونات وأجهزة الراديو القديمة، فإن ذلك يزيد من إحساس الطفل بالذنب مما يدمر إحساسه بالمبادرة.

يحتاج الطفل الصغير الوقت الكافي للاكتشاف والبحث في بيئة تستجيب له إذا كان له أن ينمي إحساساً بالمبادرة أقوى من الإحساس بالذنب. وعندما يستعجل الطفل الذي لم يبلغ سن المدرسة بعد من مكان إلى آخر يؤمن له الرعاية، أو من درس إلى آخر، فإن ذلك قد يحرمه من فرصة اكتشاف بيئته بحرية. وإذا كان الأبوان مشغولين أو متعبين بشكل لا يسمح لهما بالإجابة عن أسئلة الطفل، فإنه قد يشعر بالذنب إذ يسألهما. وعندما تعاق جهود الطفل بالمبادرة أو تخمد فإن إحساسه بالذنب سيكون التوجه المسيطر الذي يحصل عليه خلال هذه المرحلة. والإحساس الطاعني بالذنب الذي يرسخ في مرحلة

الطفولة المبكرة قد يؤدي إلى توجه دائم مدى الحياة بالتردد والخوف من المبادرة بأي مشاريع جديدة.

فترة العمليات الصلبة

في سن السادسة أو السابعة، يحصل الطفل على قدرات ذهنية جديدة يسميها بياجي «العمليات الصلبة». ومثل الوظيفة الرمزية التي تبلورت في الطفولة المبكرة فإن العمليات الصلبة تمكن الطفل من أداء أمور كثيرة لم يكن قادراً على أدائها من قبل. خاصة وأنه أصبح قادراً الآن على التعامل مع الرموز بالطريقة التي تعلم بموجبها التعامل مع الأشياء حين كان طفلاً في المهد. فمتى تمكن الطفل من العمليات الصلبة يصبح قادراً على التصنيف بطريقة هرمية. فهو الآن يدرك أن الصبيان والبنات متضمنون في صنف الأطفال، وأن القطط والكلاب والفئران تصنف مع الحيوانات، وأن البيانو والكمبيوتر آلات موسيقية، يستطيع الطفل الآن تسخير رموز الأشياء بالطريقة التي تعامل بها مع الأشياء نفسها.

هناك فارق مهم بين التعامل مع الأشياء والتعامل مع الرموز. التعامل مع الرموز تعامل ذهني يجري في رأس الطفل، ولا علاقة له بيديه. كمثال على ذلك، إذا عرض على طفل في الرابعة متاهة يتابعها بإصبعه (متاهة خشبية كبيرة تسمح للطفل باكتشاف مسارات عدة يدوياً)، فإن الطفل يبدأ باكتشافها بإصبعه، فيحرك إصبعه على مسارات مختلفة إلى أن يكتشف

المسار الذي يؤدي إلى المخرج. بينما عندما تقدم المتاهة لابن الستة أعوام فإنه لا يكتشفها بإصبعه وإنما يكتشفها بنظره إلى أن يجد الطريق الصحيح، عندها فقط يضع إصبعه على المتاهة. باكتشاف المتاهة بصرياً، يستخدم الطفل المتاهة ذهنياً بمساعدة نشاطات رمزية بدل اليدوية. ويمتد الاستخدام الرمزي ليشمل مجموعة واسعة التنوع من الاكتشافات التي يستطيع الطفل القيام بها.

إن إمكانية استخدام الرموز ذهنياً تفتح المجال أمام مستوى جديد كامل من الإنجاز لم يكن ممكناً بالنسبة للطفل دون سن المدرسة. لكن المؤسف أن لغتنا لا تعطينا مؤشرات على هذه الإنجازات الجديدة التي كثيراً ما تضيع.

فكر في مفهوم الطفل للعدد. قد يكون الطفل الصغير قادراً على التعرف على شيئين أو ثلاثة أشياء واستخدام تعبير اثنين أو ثلاثة. ولكن، بالنسبة للطفل، ليس الاثنين أو الثلاثة سوى أسماء، تقارن بالأرقام المكتوبة على قمصان لاعبي كرة القدم. ولا يدرك الطفل المدلول الحقيقي للرقم قبل سن السادسة أو السابعة. في تلك السن يدرك الطفل مثلاً أن مجموعة من اثني عشر شيئاً، كالشوك والسكاكين والملاعق المستخدمة في ترتيب مائدة لأربعة أشخاص، تبقى اثنتا عشر سواء كانت مرتبة على الطاولة أو مكومة في رزمة واحدة في الجلاية.

القراءة المتقدمة، كالفهم المتقدم للإعداد، تختلف تماماً عن البدء بالقراءة، على الرغم من أن لغتنا، هنا أيضاً، لا تقدم مؤشرات على الفرق. فنحن نقول إن الطفل يقرأ أو لا يقرأ. وكأن الطفل إما قارئ أو ليس بقارئ. لكن هناك مستويات مختلفة من إتقان القراءة. فالطفل الصغير الذي حفظ جميع الكلمات المكتوبة في كتاب تعلم القراءة البصرية، لكن القراءة البصرية، كما الأمر مع تعلم العددين اثنين وثلاثة، عملية ذهنية أسهل بكثير من تهجية كلمات جديدة واستخدام بناء جملة لاستخراج المعنى. ذلك المستوى من القراءة لا يظهر عادة قبل سن السادسة أو السابعة.

كثيراً ما نتجاهل هذه المستويات من الكفاءة عندما نستعجل الأطفال. فعندما لا يميز الأبوان بين البداية والمستويات المتقدمة من مهارات القراءة والعد، فإنهما يخطئان في تمييز أحدهما عن الآخر.

فأنا أسمع بعض الآباء يقولون «إذا كانت تعرف الأعداد (تستطيع أن تعد من واحد إلى عشرة)، لماذا لا تستطيع تعلم الحساب؟» أو يقولون: «إذا كان يستطيع قراءة هذه الجملة، (مثل جملة «عندي سلحفاة» في كتاب يتضمن جملة واحدة في الصفحة)، لماذا لا يستطيع قراءة روبنسون كروزو؟» إن تعلم التعامل بكفاءة مع الرموز ذهنياً يستغرق وقتاً ولا يمكن استعجاله إذا كان للطفل أن يصبح مؤهلاً حقاً.

العمليات الصلبة تيسر الإنجاز في مجال التعامل مع

الأشخاص كما في الإنجاز الفكري. فالأطفال في هذه المرحلة مثلاً لديهم القدرة على التعلم والتعامل وفق القواعد، التي هي أساس جميع أنواع التعامل الاجتماعي الدائمة. وتعلم التصرف وفقاً للقواعد يتطلب نوعاً من المحاكاة القياسية التي تيسرها العمليات الصلبة. فإذا أردت تعلم استخدام كلمة شكراً أو من فضلك بشكل صحيح في مناسبات معينة، لابد للطفل أن يحاكم الأمر كما يلي:

«عندما يعطيك أحد شيئاً يجب أن تقول شكراً».

«لقد أعطاني هذا الشخص شيئاً».

«إذن، يجب أن أقول شكراً».

لا يعني الطفل أنه يمر بعملية المحاكاة هذه، إنها جزء مما يسميه بياجيه «اللا وعي الفكري». إن معظم تفكيرنا لا واعي، ونحن عادة لا ندرك سوى النتائج. وهذه إحدى أسباب الصعوبات الكثيرة التي نواجهها في فهم الصعوبة التي يواجهها الأطفال في تعلم أشياء كالقواعد. فبمجرد استيعابنا القواعد والتفكير القياسي، يغيب عن وعينا أننا نستخدم هذه العمليات في تعاملنا مع الآخرين. فيبدو لنا مثلاً أن الأطفال يجب أن يتعلموا أن يقولوا من فضلك وشكراً بعد أن يُقال لهم ذلك بضعة مرات. بالنسبة للكبار يبدو قول من فضلك وشكراً مسألة بسيطة لها علاقة بالذاكرة، وليس بالمحاكاة. فنقول للطفل «تذكر أن تقول من فضلك». أو «لا تنس أن تقول شكراً». وكأن تعلم القواعد أمر يتعلق بالذاكرة فحسب.

إن القدرة على تعلم القواعد تجعل التعليم الرسمي ممكناً. فمعظم ما يتعلمه الطفل حينما يكتسب المهارات الأساسية في القراءة والكتابة هو القواعد. فهو يتعلم قواعد اللفظ والإملاء والحساب. إتقان الأساسيات يعني اكتساب عدد هائل من القواعد وتعلم تطبيقها بشكل صحيح. لذلك فإن استعجال الطفل أكاديمياً يستخف بضخامة المهمة التي يواجهها الطفل في اكتساب مهارات القراءة والحساب. ولابد لنا من تقدير الجهد الفكري المضني الذي يتكبده الطفل في تعلم الأساسيات ونعطيه الوقت الذي يحتاجه لإتمامها بشكل لائق.

كما أن الألعاب التي تتطلب قواعد معقدة تساعد الطفل في تعلم القواعد وابتكار ألعابه وقوانينه الخاصة. ويكمن أحد أخطار رياضة الفرق المنظمة في هذا العمر في أن الطفل يفقد فرصة ابتكار ألعابه وقوانينه الخاصة مما يحرمه الإحساس الصحي بنسبية القوانين. أذكر أنني شاهدت مجموعة من الصبيان يتسابقون في الشارع عندما صاح أحدهم: «آخر واحد في الزاوية لكع» كان أحد الفتیان منحنياً يربط شريط حذائه الرياضي. فصاح بالفتى الأول: «لست لاعباً! أجابه الآخر بسرعة: «ممنوع الرد». إن تعلم ابتكار القواعد - حتى القواعد البسيطة لألعاب الشارع غير المعقدة أصلاً - والالتزام بها جزء مهم من تعلم القواعد ومن التصرف الاجتماعي الناضج.

يصبح الأطفال الذين توصلوا إلى مرحلة العمليات الصلبة قادرين أيضاً على دخول ثقافة الطفولة، وهي في الواقع منظومة

من القواعد تناقلتها الأجيال بالتراث المحكي على مدى مئات السنين. أقوال مثل: «من يلاعب القط يتحمل خراميشه»، تعطي نكهة للغة الطفولة. وتعلم الأقوال المأثورة، والخرافات والنكات والأحاجي الطفولية يشكل المرحلة الأساسية من التفاعل الاجتماعي بين الأتراب الذين يشتركون في نظرهم إلى العالم وتعاملهم معه. وكثيراً ما يحرم الطفل المستعجل من هذا التراث الثقافي الغني ومن فرصة التفاعل مع الأتراب على مستوى فريد بخصوصيته الطفولية وبعده عن مخاوف الكبار.

لست هنا في معرض الدفاع عن نظرة رومانسية للطفولة توحى أن هذه المرحلة لا تعرف النزاع والقلق. فهناك أنواع من النزاع والقلق تلائم هذه المرحلة العمرية - قلق من عدم القبول لدى الأتراب وقلق حيال الكفاءة والأهلية الأكاديمية والرياضية لا بد من مواجهتها والتعامل معها. المهم في هذه المرحلة هو أن الجيل الفتى يتعلم التعامل مع الأتراب الذين يتساوون معهم في الحاجات والمصالح. وهذا يختلف عن التعامل مع راشد حيث العلاقة أحادية الجانب - للراشدين فيها سلطة على الأطفال وليس العكس - .

أحد تبعات الأسر التي تعيش مع أحد الوالدين دون الآخر والأسر التي يعمل الوالدان فيها خارج المنزل هي أن الراشدين والأطفال يتعاملون أحياناً بشكل متبادل. أحد أوجه هذا التطور هو مخاطبة الوالدين باسميهما، كما هو سائد اليوم. لهذا ربما أصبح لدينا رياضة منظمة في مستوى المدرسة الابتدائية. فقد

كانت الأسرة تقدم نظام العلاقات فوق العادية - والتابعة بينما يقدم الأتراب نظام علاقات يتسم بالتبادلية والمساواة، إلا أن العكس يبدو أنه يحصل اليوم. فالأبوان يتعاملان مع أطفالهما من منطلق المساواة، بينما الأتراب، في الرياضة في الأقل، لا بد أن يدركوا أن بعض رفاقهم من العمر نفسه (مثل كابتن الفريق أو الظهير الربيعي) لديهم سلطة أكثر من الآخرين. من خلال ردود فعل كهذه قد يصبح لدى الأنداد سلطة أكبر من سلطة الأبوين.

تمثل الطفولة، من زاوية التعلق الاجتماعي، أول انفصال جزئي عن الأبوين وبداية التعلق براشدين آخرين وأنداداً. يحدث ذلك، جزئياً، نتيجة للعمليات الصلبة. فالأطفال الصغار يميلون إلى الاعتقاد أن الأبوين يمثلان القوة المطلقة والمعرفة المطلقة، كما لو أنهما مخلوقات إلهية. وعندما يصل الطفل مرحلة العمليات الصلبة، لا يصبح لديه القدرة الذهنية على المحاكاة فحسب وإنما يراجع الرموز في ضوء الخبرة المكتسبة. ويبدأ بالتمييز، مثلاً، بين الحلم والحقيقة ويتخلى عن إيمانه بوجود بابا نويل وأرنب الفصح. (لا بأس أن يستغرق الأطفال بتقليب هذه الأفكار، فهي تقدم لهم مؤشراً مفيداً في التطور الثقافي «لم أعد أعتقد بوجود هذه الأشياء.») لكن الطفل يستطيع الآن أن يكشف أن أبويه يرتكبان أخطاء ويقولان أشياء يعرف الطفل أنها غير صحيحة.

هذا الاكتشاف أن الأبوين ليسا منزهين والفراغ الذي ينجم

عن حالتها الإلهية يحسن الناقد الفني ادموند غوس Edmund Goose في وصفه في مذكرات طفولته إذ يقول:

لقد ماتت الآن نظرية أن أبي يعرف كل شيء أو أنه معصوم مؤكد النجاح ربما كان لا يعرف إلا قليلاً، وفي هذه الحالة فإنه لم يعرف حقيقة باللغة الأهمية إذا لم تعرفها لا يهم كثيراً ما الذي تعرفه⁽⁵⁾.

عندما ينزل الأبوان من عليائهما، يستطيع الطفل أن يرفع كباراً آخرين إلى ذلك المصاف. أثناء مرحلة الدراسة الابتدائية كثيراً ما يلقي الطفل صفة المثالية على شخصيات رياضية، ونجوم سينمائية وعازفين موسيقيين شباباً. كما يبدأ الطفل يتحدث عن وقوعه في غرام إحدى رفيقاته، وأن لديه «وليفاً» على الرغم من أن التعامل بين الأطفال من زاوية بنت/ولد محدود جداً في هذه المرحلة.

ينجم أيضاً عن خلع الأبوين عن عرشهما ظاهرة أسميها «وهم المعرفة». عندما يمسك الطفل والديه في خطأ ما (كما فعل غوس)، يفترض أن والده الذي لم يعرف تلك الحقيقة البسيطة أتى له أن يعرف أي شيء!

إضافة إلى ذلك، يعتقد الأطفال أيضاً أنهم إذا كانوا يعرفون شيئاً لا يعرفه الوالد، فإنهم إذن يعرفون كل شيء. لا بد أنهم أذكى من أبويهم ومن الكبار جميعاً، حسب منطق الأمور. ولا عجب أن الطفل في هذا العمر يروي الطرف التي تتندر بغباء الكبار. ويقدم هومر سيمپسون Homer Simpson، الذي

يمثل شخصية المتلعثم، النساء، الانفعالي، الذي لا يحب العمل في مسلسل The Simpson يقدم خير صورة عن رأي الطفل بالراشد. ويشير الاهتمام أن أطفال هومر يصورون أكثر رشداً ونضجاً منه هو.

من هنا كان وهم المعرفة أحد ثمرات بدء طفل المدرسة بالتححر من أبويه. وعلى الرغم من أن وهم المعرفة من أعراض الطفولة وقلمما يتسبب في إساءة تتجاوز إمتاع الطفل وتسليته (فالطفل يحب أن يضحك من أخطاء الكبار مهما تكن)، إلا أنها قد تتمخض عن تبعات أكثر خطورة.

فاستعجال الطفل لجهة اتخاذ قرار يجدر بالكبار اتخاذه يشجع الطفل على وهم المعرفة. وعندما يطلب الراشد من الطفل مساعدته في اتخاذ قرارات خطيرة في الحياة - كالانتقال إلى بيت جديد، أو الزواج مرة أخرى، أو تغيير العمل - فإن ذلك يرسخ إحساس الطفل بوهم المعرفة، بأنه أكثر ذكاء وحكمة من الكبار. الأمر الذي قد يعطي الطفل فكرة مضخمة عن حكمته وسلطته، مما يعود عليه بالحزن فيما بعد.

كما يسهل الابتعاد الأولي عن الأبوين، في أواخر مرحلة الطفولة، تأسيس ما يسميه عالم النفس هاري ستيك سوليفان Harry Stack Sullivan الرفاقية Chumpship أو الصداقة الحميمية بين أطفال من الجنس نفسه، يتبادل كل صديقين من خلالها أحاسيسهما وأفكارهما الأكثر خصوصية. اعتقد سوليفان

أن من الضرورة بمكان بالنسبة للطفل أن يؤسس إحساساً بالحميمية يعتمد على أساساً لجميع علاقاته المستقبلية مع أشخاص من الجنس نفسه ومن الجنس الآخر. قد يترتب على استعجال الطفل في بعض الأحيان أن تسرق منه الفرصة والوقت لذلك النوع من الرفاقية⁽⁶⁾.

وأخيراً، يرى اريكسون أن مرحلة الطفولة هي الوقت الذي يوطد الطفل فيه إحساساً متيناً بالكد والمثابرة أن بإمكانه أداء عمل وإتقانه - أو إحساساً ملازماً بالدونية، وأن كل ما يفعله ستكون نتيجة الفشل. وبسبب أوضاع التعلق المتغيرة ولأن الطفل الآن يمضي ساعات طويلة في المدرسة، فإن الوالدين لم يعودا المسبب الأساسي لإحساس الطفل بالكد والمثابرة أو بالنقص. ولهذا احتمالات إيجابية وسلبية في آن.

فإذا كان والدا الطفل من النوع الذي يقلل من شأن إحساسه بالمثابرة - بالتشكي مثلاً من أي شيء يفعله في البيت، والتعليق على جميع أخطائه وتجاهل أي شيء يتقنه، عندها قد ينمو إحساسه بالدونية ليغطي على إحساسه بالمثابرة. ولكن إذا صادق هذا الطفل معلماً يشعر بإمكانياته ويوظفها، ويعزز إنجازاته، فإن الطفل قد يكتسب إحساساً صحيحاً بالمثابرة على الرغم من، أو ربما بسبب المعاملة التي لقيها لدى والديه.

المؤسف هو أن العكس ممكن أيضاً. فالأبوان اللذان يبذلان قصارى جهدهما لترسيخ إحساس بالمثابرة لدى أطفالهما

قد يجدان جهودهما تذهب أدراج الرياح في مدرسة مصممة على استعجال الطفل نحو العلم الأكاديمي للتعبير عن الفوارق الفردية. فالطفل الذي يطالب بمعرفة الحساب أو القراءة قبل أن يملك القدرات الذهنية اللازمة قد يشهد سلسلة من الفشل المحبط وينمو لديه إحساس أنه تافه عديم القيمة.

ذاك الطفل لا يكتسب إحساساً بالدونية يطغى على إحساسه بالمثابرة فحسب وإنما يكتسب ما اسماء مارتين سليغمان Martin Seligman من جامعة بنسلفانيا «العجز المكتسب»⁽⁷⁾. وعندما يواجه البشر أو الحيوانات بسلسلة من المواقف التي لا سيطرة لهم عليها وأي جهد يبذلونه للسيطرة ينتهي بالفشل، فإنهم يصابون بالهمود ويتوقفون عن بذل أي جهد للتحكم ببيئتهم. وسنرى فيما بعد أن الأطفال الذين يتعرضون للفشل المتكرر في المدرسة قد يكتسبون ميلاً نحو العجز المكتسب بالإضافة إلى إحساس ملازم بالدونية. ربما يستطيع الأبناء التغلب على تأثير المدرسة في هذا المجال، إلا أنهما أحياناً لا ينجحان.

الطفولة إذن مرحلة يملك الأطفال فيها العمليات الصلبة، ويستطيعون تعلم القوانين ويصبحون على أهبة الاستعداد لدخول المدرسة الرسمية. كما أن الطفولة مرحلة يبدأ الأطفال فيها بالابتعاد بأنفسهم عن أبويهم ويصبح الراشدون الآخرون والأتراب أكثر أهمية. وفي أواخر مرحلة الطفولة تمهد «الرفاقية» الحميمة الطريق أمام العلاقات الشخصية الوثيقة في المستقبل.

أخيراً يمكن القول إن الطفولة أيضاً مرحلة تقرر فيها خبرة الطفل في البيت والمدرسة التوازن بين المثابرة والدونية.

مرحلة العمليات الرسمية

عندما يصبح الطفل مراهقاً، في عمر الحادية عشرة أو الثانية عشرة، يشهد تغييرات بدنية في طوله وشكل جسمه وتناسق وجهه، قد تكون كبيرة لدرجة تغطي على التغييرات الكبيرة التي تطرأ على تفكير الطفل. والحقيقة هي أن اكتشاف بياحيه للقدرات الذهنية الجديدة التي تطرأ في مطلع فترة المراهقة تعتبر واحدة من اكتشافاته البالغة الأهمية والخطورة⁽⁸⁾. وفي الوقت الذي تأكد منذ زمن طويل أن الأطفال يصلون «سن الإقناع والاستنباط» في عمر الستة أو سبعة أعوام، فإن أحداً لم يؤكد أن هناك مستويات متباعدة كثيراً من الإقناع والاستنباط. والواقع هو أن الإقناع والاستنباط الذي يقوم به الأطفال يختلف في نوعه عن إقناع المراهقين. وهذا لا يقل أهمية عن ثورة كوبرنيكوس في رؤية الأطفال للعالم.

إلى جانب التغييرات الثقافية تطرأ تغييرات عاطفية واجتماعية أيضاً. ويصبح التعلق بالأبوين وسواهما أكثر تعقيداً ويشهد تحولات جذرية. ويتحول الاتكال النسبي إلى استقلال نسبي في المجالات العاطفية والثقافية والاجتماعية. كما أن المراهقة هي المرحلة التي يقول إيريكسون إنها بالغة الأهمية بالنسبة لتشكيل إحساس بالهوية الشخصية يجب أن يغطي على

الإحساس بالانفلاش. جميع هذه المنجزات في فترة المراهقة يمكن أن تتأثر بالاستعجال.

إن ما يحققه المراهقون في المجال الثقافي لا يستهان به. وكما أن الطفل قادر، بفضل العمليات الصلبة، على معالجة الأشياء بواسطة الرموز، فإن المراهق يتعلم معالجة الرموز برموز عالية المستوى. فعندما نتكلم مثلاً عن اسم أو عن حرف جر، نستخدم رموزاً للتعبير عن رموز. فلغة القواعد نظام رمزي من النسق الثاني تمثل المصطلحات فيه أصنافاً من الرموز بدل أصناف الأشياء. لذلك ليس مجدياً أبداً أن تعلم الطفل القواعد، لأنه لن يتمكن من التعامل معها بأي طريقة ذكية قبل أن يملك القدرات الذهنية التي أطلق بياجييه عليها اسم «العمليات الصلبة» وهذا يسمح للجيل الفتى أن يتعامل مع الرموز من أجل الرموز.

في كل الأحوال ما من شك في أن الأطفال يستطيعون استخدام القواعد بشكل صحيح قبل أن يتمكنوا من التفكير فيها بطريقة مجردة. فالأطفال الصغار مثلاً لا يخطئون في تركيب الجملة أو الأزمنة أو الجمع والمفرد، وما إليها قبل أن يتمكنوا من الحديث عما يفعلونه. واللغة بحد ذاتها عملية رمزية. والحديث عن اللغة بدل الأشياء يتطلب مستوى جديداً من فهم اللغة كما يتطلب لغة جديدة - هي لغة النحويين. إلا أن هذه اللغة لا يمكن فهمها إلا من قبل ذوي الفكر العملياتي الاصطلاحي. فالقدرة على أداء شيء ما لا تتضمن القدرة على الحديث بذلك عما يجري أدائه.

وقد أعطى بياجيه عرضاً تجريبياً مهماً لهذه الظاهرة عندما طلب من أطفال من مستويات عمرية مختلفة أن يسيروا أولاً على أربع ثم أن يصفوا العمل الذي كانوا يقومون به. وعلى الرغم من أن الأطفال الصغار كانوا أكثر مهارة في السير على أربع من الأطفال الأكبر ومن الكبار، إلا أن مهارتهم في وصف ذلك لفظياً كانت أقل بكثير. المراهقون والكبار هم الوحيدون الذين استطاعوا القول: «أحرك يدي اليمنى أولاً، ثم يدي اليسرى، ثم ركبتي اليمنى، ثم ركبتي اليسرى». اليمين واليسار علاقات رمزية، والتحدث عنها بنجاح يتطلب عمليات اصطلاحية⁽⁹⁾.

والجبر مثال آخر. ففي معادلة الجبر:

$$(أ + ب)^2 = أ^2 + 2 أ ب + ب^2$$

الأحرف تمثل أرقاماً. والجبر، مثل القواعد، نظام رمزي من النسق الثاني يمثل نظاماً رمزياً من النسق الأول. والنظم الرمزية من النسق الثاني تسمح بمعالجة نظم النسق الأول. الاستعارة والتشبيه تأتي في المستوى الثاني لأنها رموز الرموز. فمقولة «الجدول السطحي صاخب»، استعارة لأن رموزها، الجداول السطحية، لا تمثل أشياء فعلية، هي الجداول الفعلية، وإنما تمثل رموزاً أخرى - هي الأشخاص السطحيون. معظم اليافعين لا يقدرون التشبيه والاستعارة حق قدرهما قبل أن يبلغوا مرحلة المراهقة. وهكذا فإن الأطفال يقرأون كتاب آليس في

بلاد العجائب أو كتاب سفريات غاليفر كقصص محددة، بينما المراهقون يقرأونها كقصص رمزية. معظم تفكيرنا رمزي أيضاً، وعلى الرغم من أن الأطفال يفكرون إلا أن الناشئين لا يفكرون في التفكير قبل مرحلة المراهقة وبوادر العمليات الاصطلاحية. في هذا الوقت تبدأ الكلمات التي ترمز إلى المنتجات والنشاطات بالظهور في مفردات الناشئين. والمراهقون، على عكس الأطفال، يبدأون بالحديث عما «يعتقدون» و «يتمنون»، وعن «الإيمان»، و«الدوافع». والتفكير في فكرهم وفكر الأشخاص الآخرين إنجاز فريد للعمليات الذهنية المراهقة.

كما تمكن العمليات الاصطلاحية المراهقين من إعطاء مدلول مفاهيمي أو غير مفاهيمي للماضي والمستقبل بطرق جيدة. فالأبوان، مثلاً، كثيراً ما يذهلان ويقلقان إذ يجدان أنهما ينتقدان ويؤنبان بشدة لأمر تافه تسبب به اليافع كطفل - «لقد اشتريت له دراجة جديدة ولم يشتر لي واحدة» الأمر الذي لم يتوقف أحد عنده في حينه. ولكن في مرحلة المراهقة تتوسع هذه الذكريات وتزخر بمساعدة الفكر الفاعل الاصطلاحي. والآن يستطيع الناشئون فهم الدوافع الكافية وراء تصرف أبويهم التي كانوا يعرفونها بالحدس فحسب من قبل. كثير من ذكريات الطفولة المؤلمة تبعث ويعاد تفسيرها في المراهقة. ومن هنا فإن الناشئين يبدأون، في المراهقة، برد الصاع لكل استخفاف حقيقي أو متخيل ارتكبه الوالدان بحقهم أثناء طفولتهم وكتبوه أو كتموه - لكنهم لم ينسوه.

هذه نقطة مهمة في سياق هذا الكتاب. الطفل الذي استعجل كطفل قد لا يفهم أو يرفض الاستعجال إلى أن يبلغ مرحلة المراهقة. عندها قد يبدأ بالغضب ويرفض أبويه لأسباب يجد الأبوان صعوبة في فهم كنهها. فكثير من مشاكل وتصرفات المراهقين تجد جذورها في معاناة خبرات الطفولة التي قوبلت بالاستياء، فقط في حينها، إلا أن رد الطفل عليها جاء فيما بعد. هذا التأثير «الهامد» للاستعجال يطرأ لأن العمليات الذهنية الجديدة التي يكتسبها المراهق تمكنه من استعادة معاناته المبكرة ضمن إطار دوافع الأبوين ونواياهما.

وبفضل العمليات الاصطلاحية يبني صغار المراهقين أيضاً ما أسميه «الجمهور المتخيل». فالآن أصبح المراهق قادراً على التفكير بما يفكر به هو والأشخاص الآخرين، إلا أنه يرتكب خطأ مميزاً. فهو يداخل بين ما يفكر به هو وما يفكر به الآخرون. وبسبب التغييرات الكبيرة التي تطرأ على جسمه ومشاعره وأحاسيسه، فإن الناشئ يركز على ذاته. وبالتالي يفترض أن الآخرين أيضاً ينصب اهتمامهم على مظهره وأحاسيسه وأفكاره، شأنه هو. هذا هو الجمهور المتخيل. الاعتقاد أن الآخرين يهتمون بنا اهتمامنا نحن نفسنا.

الجمهور المتخيل، الأكثر بروزاً في أوائل المراهقة، له قوة تحريضية كبيرة. والإحساس بالذات الذي يميز صغار المراهقين ينشأ، بشكل كبير، عن الجمهور المتخيل. فأتت تصبح خجولاً واعياً لذاتك عندما تفترض أن الجميع ينظرون

إليك ويفكرون بك. فصغار المراهقين من الذكور الذين كانوا يدفعون دفعاً، كصبيان، إلى الاستحمام وتنظيف أنفسهم، يبدأون بالاعتزال وغسل شعرهم يومياً بملء إرادتهم. والساعات التي يمضيها الناشئون في الحمام، وتعلق هذه المجموعة العمرية بالمرايا مهما كان نوعها وأينما وجدت، إنما تعكس أيضاً قوة ذلك الجمهور.

يساعد حضور جمهور متخيل على تفسير السبب الذي يدفع بعض صغار المراهقين إلى رد فعل حيال الانفصال أو الطلاق أقوى من رد الأطفال أو المراهقين الأكبر سناً. فقد يعتقد المراهق الصغير أن الجميع يعرفون بأمر الطلاق. كما يعرفون بعض أسبابه غير المستحبة. ويشعر الشاب الصغير بالحرج لأن الجميع يعرفون خبايا حياة الأسرة الشخصية ويستنكر بمرارة تصرف والديه الذي يعتبره افتضاحاً علنياً مذلاً.

أما فانتازيا الجمهور المتخيل الشائعة فتتعلق بتخيل رد فعل الجمهور لوفاتنا. وعندما نشعر بالكآبة والحزن والشفقة على أنفسنا، فإننا نتلذذ بتلك التهيؤات عن الجمهور. فهي طريقة «نلاطف» بها أنفسنا في غياب من يقوم بذلك. ونذكركم بمقطع في رواية توم سوير Tom Sawyer، عندما يتسلل توم عائداً إلى بيته، بعد أن هرب مع جو وهاك، ليكتشف أنه وأصدقائه يسود الاعتقاد أنهم قد غرقوا.

إلا أن هذه الذكرى كانت اليمة بالنسبة للسيدة العجوز فانهارت تماماً، وبدأ توم نفسه يكفكف دموعه ويتنشق

شفقة على نفسه أكثر من أي شخص آخر. كان يسمع
ماري تبكي وتحدث عن حميد خصاله بين الفنية
والأخرى. فبدأ يشكل رأياً أكثر رقياً بنفسه. وكان بالغ
التأثر بحزن عمته لدرجة أنه كان يتوق لأن يخرج مسرعاً
من تحت السرير ليغمرها بالفرح - وبدأت عظمة المشهد
مسرحياً ملائمة تماماً لطبيعته - لكنه قاومها ورقد
هادئاً⁽¹⁰⁾.

كثيراً ما نسترسل جميعاً في هذا النوع من الفانتازيا، ونعي
تماماً ما نحن بصده. ولكنني خرجت بانطباع من مقابلاتي مع
مراهقين انتحروا فيما بعد، بأن فانتازيا الجمهور المتخيل قد
تلعب دوراً في تصرفات كهذه. فالأطفال الذين استعجلوا بأن
تعرضوا لجمهور حقيقي في عمر مبكرة - ربما بسبب المنجزات
السلبية أو الإيجابية لوالديهم التي تضعهم في المركز وأمام أعين
الناس - قد يكونون تصورات عن الجمهور المتخيل أكثر قوة من
الأطفال الأقل تعرضاً. هؤلاء اليافعين يتعرضون أكثر لخطر
الانتحار. فإذا شعر شاب فتي بأنه تحت رحمة جمهور قوي
جداً، وشعر أن الجمهور لا يوافق الرأي فإنه قد ينتحر في
محاولة لمعاقبة الجمهور وجعله يعاني جراء سوء المعاملة التي
قابله بها. وتقدم قصة الحالة التالية (من ملفي الخاص) هذا
التسلسل من الأحداث:

شاب في السادسة عشرة، هو هاري ي. وضع حداً
لحياته بأن سرق أدوية مخدرة من عيادة أحد الأطباء،
وتناولها، ثم اختبأ في غرفة التذاكر في مسرح المدرسة

الثانوية كي لا يجده أحد. ولد الشاب في ألمانية لجندي في الجيش تزوج فتاة ألمانية. عندما بلغ هاري الخامسة أقدم والده، في نوبة غيرة جنوبية، على قتل زوجه وقتل نفسه. فذهب هاري ليعيش مع عمه له في كولورادو. كانت العمّة تعاني من زواج فاشل، وقبلت بقاء هاري لديها بسبب الشيكات الحكومية الكبيرة التي كانت تغطي نفقات إعالتة. وغادر هاري البيت في سن مبكرة ليناضل بمفرده. لقد دفع نحو النمو السريع بسبب الإهمال.

على الرغم من قصته ووضع المعيشي الصعب، فقد كان أداء هاري جيداً في المدرسة، وكان عضواً في فريق سباق المضمار، كما كان يخرج بصحبة فتاة من أسرة غنية وسعيدة. كان هناك اجتماع لفريق السباق وطلب هاري مبلغاً من المال من عمته ليشتري حذاء جري جديد فرفضت. طلب هاري المال مرات عدة أخرى، وكان دائماً يُجاب بالطريقة نفسها. في المرة الأخيرة فقد أعصابه وشتّمها بشكل مقزّع. لم يكن هاري يعرف أن والدته فتاته كانت في الغرفة المجاورة. وعندما رآها وعرف أنها سمعت ما قاله، صعق وترك البيت وتسلسل إلى عيادة الطبيب ليحصل على الأدوية. ولم يجده قبل مضي بضعة أيام.

يأتي انتحار المراهقين نتيجة محتملة لما يعطي من قوة مضخمة للجمهور المتخيل عندما يستعجل نمو الأطفال.

فتيان آخرون استعجل نموهم، أولئك الذين أشركوا، منذ عمر مبكرة، في رياضات تنافسية وفي فنون التمثيل، وتعرضوا

كأطفال للأداء أمام جمهور حقيقي، على الرغم من ذلك فإنهم يصنعون لأنفسهم جمهوراً متخيلاً عندما يصبحون مراقبين. والجمهور الذي يصنعونه قد يكون أقوى من ذاك الذي يصنعه الناشئون الذين كانوا أقل تعرضاً للجمهور في صغرهم. نتيجة لذلك فإنهم قد يبدون تحسناً فائقاً وقلقاً بالغاً حيال مظهرهم وأدائهم لدرجة أنهم يرفضون الضلوع في نشاط محترف. النتيجة المعاكسة قد تحدث أيضاً، فيصبح الناشء متكبراً ومغروراً جداً، مترفعاً بنفسه إلى مستوى كبار النجوم. وكثيراً ما يواجه «الطفل المعجزة» الذي استعجله أبواه أزمة منتصف العمر في أوائل فترة المراهقة عندما يضطر إلى التعامل مع الجمهور المتخيل إضافة إلى الجمهور الحقيقي.

يرتبط بالجمهور المتخيل تركيبة أخرى أطلقت عليها اسم «الخرافة الشخصية». إذا كان الجميع يراقبونك ويهتمون بتصرفاتك، فأنت حتماً شيء فريد على هذه الأرض. وتؤدي بك الخرافة إلى الاعتقاد أن الناس الآخرين سيهرمون ويموتون ولكننا نحن لن نفعل، الآخرون قد يمرضون لكننا نحن لا نمرض، وهكذا. وعندما تُصاب بمصيبة شخصية، كما يصاب الجميع، فأول رد فعل نأتيه قد يكون: «لا يمكن أن يحدث هذا معي، هذه الأشياء تصيب الآخرين، لكنها لا تصيبني أنا».

ويساعد مفهوم الخرافة الشخصية في شرح كثير من المجازفات التي يقدم عليها المراهقون، كما يفسر السبب الذي يدفع الأطفال المستعجلين إلى المجازفة أكثر مما يفعل الأطفال

غير المستعجلين. فالخرافة الشخصية، من الناحية العملية، هي إيمان بعدم تعرض الشخص لأي عثرات، «هذا يحدث لشخص آخر سواي». وهذا مفهوم تهايؤي جداً لأن هذا العالم مليء بالخوف لدرجة أننا إذا لم نعمل على افتراض أننا محصنون نسبياً ضد الخطر لما استطعنا أن نأتي بخطوة خارج بيوتنا، ولما استطعنا ركوب سيارة أو طائرة، ولا أن نأكل أي طعام جاهز. وإنما نبقى مجمدين بلا حراك. ولكن هناك أيضاً خطراً إذ يبالغ الفرد بخرافته الشخصية، عند ذلك يقدم الناشئون على مجازفات لا طائل وراءها.

الأمثلة على هذه الظاهرة معروفة: كمثل الشاب الذي يجرب مخدرات قوية بعد محاولة الماريغوانا وهو مقتنع أن الأولاد الآخرين يقعون ضحية الإدمان وليس أنا. أو فتية آخرون يغشون أو يسرقون في المدرسة لأنهم يعتقدون أن «الآخرين هم الذين يمسك بهم، وليس أنا».

لماذا يستحضر بعض اليافعين تلك الخرافة ويجازفون بينما الآخرون لا يفعلون؟ صحيح أن الجواب معقد لكنني أعتقد أن الأطفال المستعجلين أكثر تعرضاً لإغراء الخرافة من الأطفال الذين لم يستعجل نموهم. فمن حيث المبدأ (كما سنتناول بالتفصيل فيما بعد)، يمكن القول إن الأطفال المستعجلين أطفال يعانون من شدة. وعندما يتعرض الناس للشدة فإنهم يصبحون أكثر تركيزاً على الذات وأكثر أنوية مما هم عندما لا يعانون شدة كبيرة. والآن أصبحت الخرافة مفهوماً أنوياً إذ تضخم إحساس

الفرد بالتفرد والمنعة، وبهذا فإن اليافع الذي يعاني من شدة يحمل خرافة مضخمة وهو بالتالي أكثر ميلاً من الشخص الأقل توتراً للتصرف بناءً على الخرافة، متجاهلاً المعرفة الواقعية بالمخاطر المتضمنة. وعلى الرغم من أن هذه الخرافة الشخصية مضادة للحدس والبداهة، إلا أن الناشئين الذين يعانون من الشدة أكثر ميلاً للمجازفة من الناشئين الأكثر حذراً.

بالإضافة إلى هذه التغييرات والأحداث التي تحرضها العمليات الصلبة، تطرأ أحداث أخرى في مرحلة المراهقة. فالأبوان اللذان كانا يشكلان التعلق الأساسي بدأ موقعهما ينحسر إذ ينجذب الناشئون إلى أشخاص من الجنس الآخر. عندها يشعر المراهق بالذنب، ويبدو له إذ «يقع في الحب» أنه يخون والديه. فيتصرف وكأن الحب موجود بكميات محددة فإذا أعطيت بعض الحب لشخص جديد إنما أنت تأخذه من حبيبك الأول.

قلما يعي الناشئ هذه الآلية، لكنه يعي الإحساس بالذنب. وربما يشعر بالغضب تجاه والديه ويبدأ بالتنقيب عن مساوئهما كي يتخلص من إحساسه بالذنب. وفجأة يكتشف المراهق أن والديه لا يعرفان كيف يمشيان ويتحدثان ويلبسان ويأكلان. الآن بعد أن طور المراهق العمليات الصلبة أصبح بإمكانه تصور والدين مثاليين يقارنهما بوالديه، فيجد لديهما نقصاً في أمور كثيرة. عندها لا يعود لدى المراهق ما يدعوه إلى الإحساس بالذنب إذ يمضي بمشاعر الحب بعيداً عن أبويه اللذين ليسا على ذلك القدر من الأهمية.

لا يختلف الأطفال عن الراشدين في هذا. فعندما يقطع الشخص الراشد علاقته بآخر فإنه غالباً ما يحط من شأن الآخر ليخفف من الإحساس بالذنب الذي يرافق الانسحاب من علاقة عاطفية. الأطفال طبعاً يكتشفون في النهاية أن هناك من الحب ما يكفي ليغطي الأبوين وصديقاً أو زوجاً. لكن هذا الفهم يأتي في أواخر المراهقة وأوائل سن الرشد، في أوائل ومنتصف فترة المراهقة يبقى لدى الناشئين حاجة لإيجاد أخطاء في أبويهم ينتقدونهما عليها.

أما الأطفال المستعجلون، الذين قد يحفظون كثيراً من الغضب تجاه والديهم فإن الانتقاد والبحث عن الأخطاء كثيراً ما يكون أكثر حدة ومبالغة مما هو بين الناشئين الذين لا يحملون غضباً مكبوتاً لفترة طويلة تجاه والديهم. وقد أطلق فرويد على هذا الغضب الذي لا يتناسب مع سببه المباشر صفة «البالغ التصميم» وليس الغضب الذي يعبر عنه الطفل المستعجل تجاه والديه موجهاً في الحقيقة على ثياب الوالدين أو طريقة أكلهما وإنما هو موجه ضد سلسلة طويلة من الانتهاكات الحقيقية وأحياناً المتخيلة. ويتجاوز غضب الطفل المستعجل أحياناً حدود النقد اللفظي، وقد يصل في الحالات المتطرفة إلى حدود التهجم الجسدي.

البعد الأخير للمراهقة الذي يحتاج إلى تغطية هو ما يسميه أريك أريكسون «أزمة الهوية الشخصية مقابل انتشار الدور». فالعمليات الصلبة تيسر تشكل النظريات، إضافة إلى أشياء

أخرى. والنظرية نظام رمزي من النسق الثاني، وكما يمكن القول إن الجبر نظرية في الرياضيات، والقواعد نظرية في اللغة. وكلاهما مجرد، كما هما عمليات على أنظمة الرموز الأولية. وما نسميه «شخصية» أو «هوية شخصية»، أو «نفس» هو نظرية بهذا المعنى، والشخصية تجريد من نسق أعلى يضم تجريداً من نسق أدنى تعتبر مشاعر مواقف وسمات وعادات وما إليها، بعضها قد يكون متناقضاً. وهكذا فإن الشخصية نظرية حول اندماج الأوجه المتباينة لشخص ما مع بعضها بشكل معقول ومقبول.

لا يشكل الناشئون إحساساً بالهوية الشخصية وبتفرد شخصيتهم قبل مرحلة المراهقة. كما لا يسبغ الناشئون هوية أو شخصية مستقلة على الآخرين قبل المراهقة. فبناء الإحساس بالهوية الشخصية يتطلب، بالإضافة إلى العمليات الصلبة، خبرة قوية ومتناغمة بالذات. فالناشئون الذين يملكون إحساساً متناغماً بدورهم الجنسي ونجاحهم كطلاب، وبعاداتهم في العمل، وعلاقاتهم بالكبار وبأندادهم يجدون أن بناء الهوية تحد بقدر ما هو مهمة مجزية. فالمكونات كلها موجودة، وكل ما تحتاجه هو أن تخلطها مع بعضها بمجرد أن تصبح العمليات الذهنية ممكنة.

بالمقابل، إذا كان الناشئون غير واضحين فيما يتعلق بدورهم الجنسي، وليس لديهم الثقة بمهارتهم الأكاديمية، وإذا كانت علاقاتهم بأبويهم وأندادهم غير واضحة، فإن بناء الهوية قد يكون مشطاً بشكل حاد. والواقع أن بناء نظرية طاغية بالهوية

مع تضارب وتناقض المعطيات أمر بالغ الصعوبة. وعندما يحدث ذلك يتعرض الناشئون لإحساس بـ «انتشار الدور»، ونقص في التعريف الواضح والتماسك قد يؤدي إلى تبني هوية سلبية (مجرم أو عاهرة) تعريفها واضح لا لبس فيه. وقد يختار ناشئون آخرون ضياع الهوية بالانتماء إلى عصابة أو منظمة دينية. تستمد هذه الجماعات قوة جذبها من كونها تقدم هوية مسبقة الصنع يستطيع الناشئ أن يدعيها دون عذاب وبغض النظر عن تاريخه الشخصي.

وأنا أشعر أن الطفل المستعجل يعاني من مشاكل في تملكه إحساساً آمناً بالهوية. وفي حالة الناشئين الذين أغرقوا بالرياضة وفنون التمثيل، فإن تكوين الهوية يأتي مبكراً جداً. أولئك الناشئون يميلون إلى تحديد أنفسهم بشكل ضيق، في ضوء منجزاتهم وليس في ضوء الأوجه الاجتماعية والثقافية الكثيرة التي تربط الشخصية بها عادة. كما أن الأطفال الذين استعجلوا باتجاه اتخاذ القرارات الناضجة وتحمل المسؤولية قد يكون لديهم إحساس مشتت بطاقتهم وإمكاناتهم في هذا المجال. وقد يبدو إحساسهم بالهوية الشخصية أكثر نضجاً واطمئناناً مما هو في واقع الحال. هذه النتائج للاستعجال سنعود إليها فيما بعد بمزيد من التفصيل.

والآن بقي أن نلخص النقاط الرئيسة في هذا الفصل، من أن النمو إلى الشخصية في مجتمعنا المعاصر يستغرق وقتاً ولا يمكن استعجاله. ونحن نعرف أن النمو سلسلة من المراحل

المرتبطة بالعمر. كل مرحلة تحمل تغييرات كبيرة في القدرات الثقافية، وفي الارتباطات العاطفية، وفي العلاقات الاجتماعية. . والتوسع في هذه القدرات الجديدة بجميع تعقيداتها وتشابكاتها عملية بطيئة ومدروسة. عندما يضغط على الأطفال كي يكبروا بسرعة، فإنهم يتجاوزون منجزات مهمة مما يولد مشاكل غاية في الخطورة فيما بعد.